الفصل السابع عشر

الحـرب في ليفونيـا

عاد السفراء الليفونيون يحملون الهدايا الى إيڤان دون أن يحملوا الجزية فرفض القيصر هداياهم . حقا قدم لهم عشاء وأولم لهم الوليمة الفاخرة المعتادة في مثل هذه الظروف ولكنه كن يهزأ منهم لأنه أمر بألا يقدم الى السفراء الا صحون لا لحم فيهـا ولا دهن . ولا بـد أن التسلية على حسابهم كانت مشوقة . وكان الشيخ علي ينتظر عند الحدود الليتوانية مـع أربعين ألفـا من الرجـال يكادون كلهم أن يكونوا من الشراكسـة والشيريميز جندوا من الجنوب الشرقي على أساس أنهم أكثر نزوعا من الجنود الروس الى القتل والسلب والنهب . وكان يوجد مع الشيخ علي زعمـاء بواسـل من أمثال إيڤـان شيريميتييف ودانيـال أرداتشيف وسيريبراني كما كان يشترك معه في القيادة أندره كوربسكي وميشيل فاسيليڤتش غلينسكي . أما السفراء فقد عادوا أدراجهم وأصدر القيصر أمره بالاجتياح .

وكان الفرسان التيوتون الذين يسكنون القصور الجميلة قد غدوا مخنثين وغدا نظام فروسيتهم ملهـاة مضحكة تصلح لإبهار النساء أكثر من صلاحيتها لقتل الرجال . وفي هذه النقطة كان مؤرخو الطرفـين متفقين ، فالفرسان لم يكونوا يستطيعون إبداء مقاومـة كبيرة أمـام الروس . وهكذا اخترق الشيخ علي البلاد وقام بمذبحة كبيرة وحصل على غنائم كثيرة لأن ليفيونيا كانت بلاداً سمينة صالحة للنهب . وقد بدأ الغزو في الثاني والعشرين من كانون الثاني يناير ١٥٥٨ دون أن ينتبه